

## فيرون

زعيم الشكك اليونان

للأستاذ محمد محمود زيتون

ولد فيرون بن بلسارك الفقير حوالي سنة ٣٦٥ ق.م. في (إيليس) بلد (هيبياس hippias) الفسطاني، و (فيدون Phédon) تلميذ سقراط. اشتغل نقاشاً منذ نعومة أظفاره، وانصرف عن النقش إلى الفلسفة؛ غير أنه نشأ ومات فقيراً، وعمر خمسين عاماً. وقد ذهبت الآراء في (فيرون) مذاهب شتى، عمود ارتكازها فيما أنه صاحب مذهب الشك الأخلاقي الذي نسب إليه وعرف به وهو (الفيرونية Pyrrhonisme) الذي امتد في المكان والزمان ودار مع الفلك حتى انقسم شطرين: الفيرونية القديمة، والفيرونية الحديثة. ومجرد التسمية يفننا على أن فيرون هو الجد الأول للشك وزعيم الشكك اليونان.

عرف (فيرون) بالتقوى والورع، وعاش مع أخته (فيلستا philista) وكانت أعقل منه. كم كانت تشفق عليه، وترقى لسوكة المجيب، وتناقضه في الحياة: فقلما كان يوجد في داره، وقلما كان يرى بين صاحب أرفاق، وكثيراً ما كان يحب الخلوة بنفسه وارتياح الهدائن الثائية، والأما كن التي لا يؤمها الناس. وكان من عادته أن يترحل دون أن يعلم به أحد، فيسير كيفما اتفق إلى حيثما اتفق، غير طابء بشيء ولا مكترث لشيء. حكى عنه (ديوجين لأرس) أنه كان مرة في سفينة تتقاذفها الأمواج، وتتلاعب بها العواصف، حتى أوشك الركاب على الفرق، فهاجوا وماجوا، واضطرب جبلهم، وتوقصوا الموت في أحضان البحر، وشجبت وجوههم. أما فيرون فلم يبال ولم يهتم، بل استمر في برود تام وهدوء لا حد له، ثم وقف يقول «ذلك هو الهدوء الذي يجب أن يمنحه العقل والفلسفة لأولئك الذين لا يريدون أن يستسلموا للخطوب».

وكان صديقه (أنكسارك) في صحبته يوماً فسقط في مستنقع،

فلم يلبأ به (فيرون). ولم يمد له يد المساعدة بل تركه ومضى في سبيله لا يلوى على شيء، ويقدر ما لامه الناس وأوسموه ذمماً وتقريماً، هناك أنكسارك على نبات جنانه، وعصمته من التالم.

ويقول عنه (شيشرون) إنه لم يفرق بين الصحة التامة والمرض الأليم. وكان سواء عنده أن يعيش وأن يموت، وكثيراً ما كان يجري على لسانه قول (هوميروس) «ما أشبه الناس بأوراق الشجر» وترابه الآثر «أنا إن لم يموت يدهرك، فلماذا تتحسر؟ مات قبلك (باروكل) وهو خير منك». واتخذ شماره «لا شيء أفضل من شيء».

كان (فيرون) عباً للرحلات، اسطجبه (أنكسارك) في حملة الإسكندر إلى الشرق، فعرف أخلاق المنود وطقوسهم وعاداتهم، فتركو في نفسه أهدالاً أثر، ويقال إنه عرف الكثير من العادات والأخلاق الشرقية عند السورين واليدين والمصريين والفرس.

وبدموت (الإسكندر) عاد إلى وطنه وأسس مدرسته حوالي سنة ٣٢١ ق م وقد أكبره مواطنوه فلقبوه «الكاهن الأكبر» وأقاموا له تمثالاً بدموته، ثم إنه عاصر (أرسطو)، وعرف كتبه وتناقش مع ابن أخته (كالستين)، وتلمذ لمتفان السقراطيين والينارين خاصة، وتذوق مذهب (ديمقريطس) عن طريقهم وتعلم على يديهم الجدل، ولكنه نهض إليه، وعرف السقراطيين وعاصروهم وصاحبهم ووطنهم، ووقف على أسرار الشرق وروحانيته. وبذلك استوعب التراث الفلسفي من مفايته الأولى.

والمروف أن (فيرون) لم يكتب شيئاً عن مذهبه، ولم يلق محاضرات، وكل ما كتبه قطعة نفية للبحث على النزو منحه الإسكندر عليها عشرة آلاف قطعة من الذهب. وكل ما انحدر إلينا عنه نذر يسير في مقطوعات احتفظ بها معاصروه وتلاميذه وعلى رأسهم (تيمون Timon) الوفي.

وقدخلص (أرسطقليس Aristoclés) مذهب فيرون تلخيصاً وافية فمقال (فيرون الإيلي لم يترك مكتوباً، ولكن تلميذه تيمون يقول: إن من أراد أن يكون سميداً فليعتبر ثلاثاً: ما الأشياء في ذاتها؟ وما موقفنا حيالها؟ وماذا نجني من وراء ذلك؟ الأشياء كلها بلا استثناء غير حقيقية على الإطلاق، وليست أحكامنا ولا

فقط في المحسوسات بل في المعنويات أيضاً من فضيلة ورذيلة ومدل وظلم وغير ذلك . ولا يمكن القول بأن الشاهد أحلى من العنب ، لأن التفضيل يتضمن الإثبات ، ولا يمكن القول بأن الشاهد ليس أحلى من العنب ، لأن ذلك يتضمن نفي الحكم عن شيء وإثباته لآخر . والنفي والإثبات لا وجود لهما لأنهما متعارضان ، وبالتالي يفنى أحدهما الآخر .

فالأحكام المضافة إلى الأشياء والمعاني لا وجود لها في الواقع ، وكذلك الأحكام المسلوقة منها ، سواء كانت تقريراً أو تقديرية ، لأن الناس في عرف فيرون « إنما يخضعون في أحكامهم للقانون والدفء فيجب أن نلتزم الحياد التام من هذه الظواهر والأعراض ، والخير كل الخير في «تطبيق الحكم» . هذا هو الموقف التوقفي الذي يريد لنا فيرون حيال الأشياء ، فإذا نفيد من ذلك ؟ هذا هو السؤال الثالث والأخير فلنسال :

ثالثاً : ماذا نجني من تطبيق الحكم ؟

لا يشغل الناس في حياتهم إلا التردد بين الشيء وضده ، والخيرة بين الخير والشر . وهم كثيراً ما يجلبون لهم والنم لأنفسهم بأنفسهم فيتألمون لأنهم محرومون مما يعتقدون أنه الخير الذي إن وجدوه أشفقوا من أن يفقدوه ، ثم هم يتألمون لأنهم مرتكبون لما يعتقدون أنه الشر الذي إن أساءهم تحسروا على أن قد ارتكبوه ، فلام بالخير فآثرون ، ولا هم من الشر سالون . فالرغبة حرمان ، والحرمان ألم ، والألم إتيان ، والإتيان رغبة . فاجتنب الاعتقاد بالخير والشر تختفي كل الوسوس والمواجس ، فإن الشك هو الخير الحق ، ومتى استراح الناس من كابوس الخير والشر ، فليضربوا في الحياة كيفاشاءت لهم الحياة ، لا يفرحون ولا يحزنون ، يأكلون حين يجوعون ، ويشربون حين يظماون ، لا يطمحون ولا يتحسرون . واحتمهم في أنهم لا يبالون ، لأنه لا شيء في الحياة ذو بال .

هذا هو فيرون بطلق الحكم وينفي الأضرار ويجاهل الخير والشر فيشرح لا يبال بشيء ولا بهم بشيء ، لأن شيئاً بالتأ ما بلغ لم يمد يده عن عينه ، أو يهز علفيه ولو سقط أنكسارك ولو أوشك هو على الفرق .

الشرور واقمة ، ولكن لا نستطيع ولا يستطيع أحد أن

مشاعرنا بقادرة على أن تمثل لنا الحق أو الباطل . لذا وجب ألا نركن إلى الحواس ولا العقل . وإنما يجب أن نظل بدون رأي لا نجفع إلى ناحية دون أخرى . بهذا لا يتطرق إلينا الألم ، فإذا عرض لنا شيء وجب ألا نثبته أو ننفية ، وألا نثبته أو ننفية مما ، وعلى هذا الوجه نصل إلى تطبيق الحكم l'époque ومنه ينتج تطبيق اليقين l'aphasie ثم ننهي إلى الطمأنينة التامة l'ataraxie (١)

ولكي نزيد ذلك بياننا نتساءل مع تيمون ونجيب مع فيرون فنقول :

أولاً : ما الأشياء في ذاتها ؟

يقر فيرون بأن الوقت نهار ، وأنه هو حي يرزق ، وأنه يرى بعيني رأسه ، وأن ذلك الشيء يلوح له أبيض ، وأن المثل يبدو له حلوا ، وأن النار تحرق كما يرى ، ولكن هل الشيء في ذاته أبيض ، وهل المثل حقا حلوا ، وهل من طبيعة النار أن تجرق ؟؟ يجيب فيرون : لا أدري .

فهو لا يفكر المرئيات والسموعات وسائر المحسوسات ، ولكن ما حقائقها ؟ لا يدري . فالحواس هي كل ما يملك فيرون من هذه الدنيا ، وهو يمتز بها ويؤيدها بقوة ، وظواهر الأشياء وأعراضها هي كل ما يدرك من معرفة . ولكن هل هذه الظواهر هي هي بيننا حقائق الأشياء ؟ كلا . فما الحقائق إذن ؟ لا يدري . ولهذا يقول (تيمون) « إن الظاهر ملك حينها وجد » فإذا كان ذلك هو أمر الأشياء ، فلنسال مع تيمون هذا السؤال الثاني :

ثانياً : ما موقفنا حيال الأشياء ؟

كل الناس أو على الأقل ( فيرون ) يستطيع أن يثبت للشيء صفة ، وأن ينفي عنه نفس الصفة بمقدار واحد ، لأن النفي والاثبات في كفتين متعادلتين لا مرجح لأحدهما دون الآخر : الشاهد حلوا ، والشاهد ليس بحلوا . هذان المسكان لا يثبتان في العقل ، لأن أحدهما يحعو الآخر ، فلا يهود لهما وجود ، كالنار تختفي في الخشب الذي تلتهمه . فلا يمكن القول بأن هذا الشيء شريف أو سخيف ، وأنه صحيح أو غير صحيح ، وأن هذا الشخص هو تيمون أو غير تيمون . لماذا ؟ لأن الأضداد متعادلة في ثقلها على الأشياء ، ليس

يكون لوجود أمارتين متساويتين عنده بالنقيضين أو لعدم الامارة فيهما « (١) وذلك هو تمليق الحكم عند فيرون .

ويقول الجويني: «الشك ما استوى فيه اعتقادان ، أو لم يستويا ولكن لم ينته أحدهما إلى درجة الظهور الذي يبني عليه الماقل الأمور المتبيرة » (٢) وذلك هو الشك الاعتقادي عند فيرون

ويقول التهانوي « الظن عند الفقهاء : التردد بين أمرين استويا (٣) واستدل على ذلك بذكر هذا المعنى في (الحواشي المضدية) وفي (العلم) ، وعلى ذلك ، فالشك مرادف للظن ، وجاء في (كليات - أبي البقاء) « الظن يكون معناه يقينا وشكاً ، فهو من الأضداد كالرجاء يكون خوفاً وأمثالاً . وفي الحديث القدسي : أنا عند ظن عبدي بي ، بمعنى اليقين والاعتقاد » (٤) .

وما دام الشك مرادفاً للظن ، والظن يقين وشك ، فالشك يكون معناه اليقين ، واليقين عند أبي هلال العسكري « هو سكون النفس بما علم » (٥) وذلك هو الطمأنينة التامة غير فيرون .

ومن هذا نرى أن مذهب فيرون ليس من السفسطائية في شيء ، وبذلك يكون ابن حزم مخطئاً إذ اعتبر اللاأدرية مذهباً سفسطائياً ، واللاأدرية ليست مع ذلك إلا جزءاً من «الفيرونية» الذي يتلخص في ثلاث وثلاث :

١ - ما الأشياء في ذاتها ؟ لا ندرى

٢ - فما موقفنا حيالها ؟ تمليق الحكم

٣ - فإذا نجحنا من ذلك ؟ الطمأنينة

على أن تمليق الحكم وعدم الببالاة ليسا من أساليب الحياة في قليل ولا كثير . إذ التقدم ظاهرة الحياة ، وكل شيء في الوجود يسمى إلى كماله ويتوق إليه ، ويشق به ، أما التوقف فنكوص على الأعتاب ونحن في حركة دائمة مادامنا نذكر حتى لقد قال (ديكارت) « النفس تفكر دائماً L'âme pense toujours » والسكون في نظر (هرقليطس) هو الموت والدم ، ونحن لا بد لنا من أن نختار يمينا أو شمالاً pour ou contre رصدق السيد المسيح عليه السلام : (من لم يكن ممي كان على) .

محمد محمود زيتونه

(للكلام بقية)

يبديها ، وما على المرء إلا أن يخفف من وقعها عليه ، وأن يهون على نفسه منها . وليمش كسائر العظيمة الدهماء ، خاضعا لقوانين الدولة وعوائدها ودينها ، لا يثور عليها ، فقد لاقى سقراط جزاء ثورته ، فامتلات النفوس خوفاً ورعباً ، وتجمدت الإرادة خنوعاً ومسكنة ، حتى قال تيمون « أما نحن فلا نخرج عن العرف » . وبهذا التوقف الاعتقادي نصل إلى الطمأنينة التامة والسعادة المطلقة حيث لا أثر ولا ألم . وهل السعادة إلا غياب الألم ؟ وهل ينشد الانسان إلا السعادة ؟ وهل من سيبل إليها إلا في تمليق الحكم وعدم الببالاة ؟

« فالأشياء مظاهر لا ندرى حقائقها ، فلنقف منها على الحياض غير مباين بشيء ، فستريح ونطمئن ونسعد »

وإذا كان فيرون يلتمس السعادة في الشك ، فإنه يتخبط في سلك الفكرين بهذه الطرافة الغائبة التي أفسحت له مكانا بينهم ؛ ذلك بأن الناس انما يختلفون في وسائلهم الى غاياتهم أكثر من اختلافهم في غاياتهم ، واشد ما يكون الاختلاف إذا أجمدت الغايات . وإذا كانت غاية الغايات عند الجميع هي السعادة ، فقد توسل لها سقراط بالعلم ، وأفلاطون بزكاة النفس ، وأرسطو بالحكمة ، وأبيقور باللذة ، ودوجين بالفوضى ، أما فيرون فوسيلته تمليق الحكم أو اللاأدرية . ولهذا يقول (واديجتون Waddington) في كتابه عن (فيرون والفيرونية) :

« ان أساس مذهب فيرون أنه اتخذ من الشك آلة للحكمة والاعتدال والمزلة والسعادة » أي أن فيرون اتخذ من الشك آلة للشك .

يقول الجرجاني «الشك هو التردد بين النقيضين بلا ترجيح لأحدهما على الآخر عند الشاك » (١) وذلك هو اللاأدرية عند فيرون

ويستطرده الجرجاني يقول « وقيل الشك ما استوى طرفاه ، وهو الوقوف بين الشئيين لا يميل القلب الى أحدهما » وعند أبي البقاء وقيل الشك اعتدال النقيضين عند الإنسان وتساويهما ، وذلك قد

(١) كليات أبي البقاء (٢) عن التهانوي مجلداً ٧٨٥ (٣) كتاب مصطلحات الفنون (٥) الكليات (٦) ٢٣٩ (٦) مختصر الفروق ص ١٤١٠